ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 15 يونيو 2017

# العنـف والديانـات التوحيديـة

بول فلاديي
ترجمة: عبدالله المتوكل

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

# العنف والديانات التوحيدية

بول فلاديي

ترجمة: **عبدالله المتوكل**

يعتبر تنامي العنف في زمننا هذا أمرا مدهشا، إلى درجة يمكن معها، عن حق، أن نصف العالم المعاصر، اقتداء بعالم الاجتماع الألماني فولفغانغ سوفسكي Wolfgang Sofsky،[1] باعتباره **عصر الرعب**؛ إذ يتخذ أشكالا متعددة؛ من الإرهاب الدولي إلى حروب الإبادة اللذين ميزا العقد الأخير، إلى الأوبئة المعدية (السيدا) التي تفتك بأمم وأجيال بكاملها أو المجاعات المدمرة في بعض القارات، الناجمة عن فساد الأنظمة السياسية أو تقصير المسؤولين، مرورا بالإهانات الممارسة من طرف مختلف أشكال التحرش الجنسي، دون أن ننسى ما تتعرض إليه البيئة من تدمير، واللائحة طويلة ومدهشة، ينبغي أن نضيف إليها الحروب، التي لا يشكل الصراع في العراق (مارس2003) إلا النموذج الأخير، المخزي والمدان منها. والإنسان بقدر ما هو ضحية لهذه الفظاعات هو قادر أيضا على ارتكابها، بل يبدو أنه على ضلال مبين من حيث إنه يتوصل إلى تبريرها، ويجد لنفسه «أسبابا» للتمادي في هذا السباق المهول، المطلوق على عواهنه.

أمام تعدد أشكال العنف هذه، يتوجب أن نكون قادرين على مقاومة رغبة إيجاد سبب واحد وتفسير بسيط لها، يكون مسؤولا عنها ومحدد بطريقة واضحة، وكبش فداء حامل لكل خطايا العالم. يتعين على العقل الحصيف أن يمتنع عن وضع جميع الويلات المشار إليها أعلاه في سلة واحدة، وردها إلى أصل واحد ومشترك. ينبغي بالأحرى التساؤل حول هذه الكثرة في أشكال العنف، المتجددة على الدوام. لكن هذا التساؤل هو بالضبط الذي بإمكانه أن يقودنا إلى استخلاص أن العنف، في الواقع، أصبح غير قابل للحصر وأنه بمثابة نوع من اللعبة الفارغة أو الافتراضية، لا يطابق أي واقع قابل للرصد أو أي واقع يمكن أن يُرد إليه. يُعتبر جون بودريار Jean Baudrillard أحد الوجوه الرمزية والممثلة للمحللين الذين ينزعون عن العنف طابع الواقعية، ولا يرون فيه إلا لعبة فارغة للعلامات، من العبث البحث عن التحكم فيه.

غير أن الأكثر مدعاة للاندهاش هو أن العديد من المهتمين بالموضوع لا يواجهون كما ينبغي المنطق الذي ينسب العنف إلى سبب يعتبره حاسما أو أكثر صلة به من غيره من الأسباب؛ والدين تبعا لهذا المنطق، أو الديانات التوحيدية بصفة خاصة، تستعمل ككبش فداء لتفسير وتعليل حادث مثير من أحداث الساعة. من الأكيد أن بعض أشكال الإرهاب الدولي تتذرع بغطاء ديني. فابن لادن يُكثر في كل رسالة من رسائله من الإحالات إلى الإسلام؛ يدعو المؤمنين «الحقيقيين» إلى خوض الحرب المقدسة ضد الكفار و«الصليبيين»، ولا يخشى التحريض على حرب جديدة بين الديانات والحضارات، وليس ذلك فقط من خلال تصريحات ذات نبرة حربية، بل بواسطة جرائم منظمة وممولة من طرف منظمات بالغة التعقيد. لهذا السبب ذاته، يجد كل مؤمن نفسه، مسلما كان أو غير مسلم، متهما بهذه الدعوة إلى البربرية، ومن ثمة مطالبا، بطريقة ما، بمساءلة ديانته الخاصة بغرض تطهيرها من شبهة كونها ترعى وتغذي أو رعت وغذت في الماضي أشكالا مماثلة من البربرية. لكن هل بإمكان هذه الاستعمالات المغرضة للدين أن تبرر ما نسمعه غالبا في أيامنا هذه:

---

1- Gallimard/Essais, 2002; cf. *Etudes*, janvier 2003, p. 130-131

اتهام وإدانة عقيدة التوحيد le monothéisme بما هي كذلك؟ بالإضافة إلى ذلك، فإن توظيف جورج بوش الابن لله في خطاباته وخوضه للحرب باسمه أو في سبيله، يُنتج من جديد داخل الأوساط المسيحية الأصولية محاكاة ابن لادن، وفي هذا السياق ألا يكون الالتباس في العقول شاملا؟

## اتهام جسيم

من منا لم يسمع بهذه الأحكام القطعية؟ الديانات التوحيدية هي أوكار للعنف تغذي لدى أتباعها ميولات، لا يمكن قمعها أو كبحها تقريبا، لإقصاء الآخر باسم الحقيقة الموحاة التي يدعون امتلاكها وباسم الإله الواحد الذي يفرضونه. يحركها كلها نفس الإكراه الداخلي نحو العنف. وعند الاقتضاء لا يفيد في شيء العودة إلى النصوص المقدسة لحسم النقاش. ولعل مما له دلالته بهذا الصدد، العبارة التالية التي كتبت حول الإسلام[2]: «لا تكمن المسألة في معرفة ما يقوله **حقا** القرآن (التشديد يوجد في النص)، لأن معناه، مثله في ذلك مثل كل نص مقدس، متناقض ومرتبط بالقراءة والتأويلات التي يعطيها الناس له. والإنجيل يبرر محاكم التفتيش أكثر من فرانسيسكو دي أسيس François d'Assise». هكذا يلتقي الإنجيل والقرآن في تبريرهما للجريمة والقداسة. إننا هنا أمام حكم اختزالي، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، مادام أنه يضرب بحجر واحد ثلاثة أهداف: ثلاث ديانات - اليهودية والمسيحية والإسلام - تم الخلط بينها في إطار نفس الإدانة. غير أن هذا الخلط ليس كليا: إذ فيما يتعلق بالقرآن لا يمكن معرفة ما يقوله **حقا**، بينما يبرر الإنجيل، بطريقة واضحة، محاكم التفتيش (أين ومتى وكيف؟ لا يمكن معرفة ذلك، مادام أن الأمر يتعين أن يكون واضحا بذاته).

من الواضح أن حججا أكثر جدية بإمكانها تدعيم هذه الأحكام. يقال إنه إذا كان التوحيد أداة للعنف في يد الناس، فلأنه إقصائي، كلياني، لامتسامح، بما أنه حامل لحقيقة واحدة ينبغي أن تحل محل كل الحقائق الأخرى. فباسمه أو في إطار هيمنته، كيف لا تكون كل الوسائل بما فيها الأكثر إجراما مبررة؟ وهنا، كما يحدث غالبا، يصلح نيتشه للاستعمال كذريعة، هو الذي طابق، بالفعل، بطريقة مطلقة، بين إرادة الحقيقية وهيمنة الإله الواحد، اعتبر أول ملحد في صفوف المشركين أو القائلين بتعدد الآلهة[3] polythéistes. وقد أفسحت أقواله المتقدة الباب أمام ظهور فكر معقد، دون مراعاة ما يتميز به نيتشه من حس التمييز الدقيق بين معاني الأفكار...إذ تمت معارضة[4] التوحيد السجالي والإمبريالي بشِرك عطوف، متعدد، متسامح، منفتح على التنوع، مرحب بالحساسية بل بإرضاء الحواس، وبالتالي ذي نزعة سلمية. ولتدعيم هذا التصور يُستدعى أيضا نيتشه، دون اهتمام بتسجيل إلى أي حد يعتبر ديونيسوس Dionysos بالنسبة إليه، إذا ما أخِذ

---

2- انظر Le nouvel observateur (hors-série, n°46, janvier 2000)، المخصص لموضوع «حرب الآلهة»، ص 18

3- Nietzsche, *Ainsi parlait Zarathoustra,* Deuxième partie, «Des renégats», § 2.

4- انظر، من بين آخرين، Marc Augé, *Génie du paganisme,Gallimard,*1982 وأيضا Michel Maffesoli , La part du diable. Précis de subversion post-moderne, Flammarion, 2002.

باعتباره رمزا للإلهي، إلها قاسيا، إله التمزق الدائم، كما أن هذا التصور لا يبدي أي احترام للصورة التي قدمها وخلفها كتاب التراجيديا اليونانية حول تعدد الآلهة اليونانية، والذي لم يكن أبدا تعددا سلميا وسارا، بل مضللا للوعي الإنساني وقائما على الصراع بين الآلهة بفعل غيرتهم من بعضهم البعض.

والحقيقة، كما سجلنا ذلك أعلاه، فإن نفس الإدانة لا توجه بالتساوي إلى كل أشكال الديانات التوحيدية المنبثقة من التوراة. من الواضح أن الديانة اليهودية تفلت من النقد، إذ إن الإحالة إلى معاداة السامية تقضي جذريا وبسرعة على كل نقد غير ملائم لهذه الديانة[5]. وفيما يتعلق بالإسلام، غالبا ما يتم الثناء على تسامحه، حيث تستعمل الإشارة إلى تجربة الأندلس القروسطية كحجة لا تناقش[6]، رغم أن المسلمين في هذه الفترة كان عليهم أن ينسجموا مع الأقليات اليهودية والمسيحية النشطة والدينامية - وهو السياق الذي يفسر إلى حد كبير تسامح الإسلام في هذه الحقبة - ورغم أنه خارج هذا القوس السعيد، كانت وضعية «الكفار» داخل الإسلام هي وضعية «المحميين»، أي المهمشين، المحرومين غالبا من الحقوق المعترف بها للآخرين.

و بهذا الصدد، فإن المسيحية هي التي تجد نفسها محددة، باعتبارها علة ومصدرا للعنف. صحيح أننا، بدون شك، نعرفها أفضل من الديانات التوحيدية الأخرى، ما دام أنها طبعت الغرب بميسمها وأثرت فيه. يمكن لبديهية ما، تفرض ذاتها بدون نقاش، أن تهمل البراهين: بعض الإشارات إلى الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش ومطاردة الساحرات تقدم الحجج التاريخية الضرورية والكافية على ذلك. تصلح حالة إيرلندا الشمالية، وهي مثال مضاد لحالة الأندلس، كمرجع وحجة غير قابلة للنقاش [تدعم هذا الاتهام]، حتى ولو كانت وضعية هذا الإقليم، مع ذلك، خاصة جدا، وحتى لو كانت الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية داخله، التي هي على قدر كبير من التوافق، متحالفة ضد الإرهاب. ومن جهته، فإن النقاش حول مسألة انتماء تركيا للسوق الأوربية، يوضح على الوجه الأكمل الحكم المسبق المستتر. فالموقف الذي يضع موضع تساؤل هذا الانتماء الممكن مستقبلا، متهم بالدفاع عن جهة مسيحية إقصائية ومرتعبة - رغم أن العديد من الحجج الأخرى الجغرافية والتاريخية والسياسية الوازنة تقدم في هذا الإطار. لكن هذه الأسباب المقترحة ترتبط و«تُفسَّر» بشيء ما لا يقال، هو الذي يبررها والذي ليس شيئا آخر غير خوف أوربا المسيحية، المتجذر تاريخيا، من العالم الإسلامي. هكذا يتم تفادي التساؤل عن مدى قابلية واستعداد تركيا لهذا الاستحقاق، تركيا هذه المنقسمة بعمق، التي من المؤكد أنها غير مستقرة دينيا، وحيث العلمانية فيها يدافع عنها الجيش، أي السيف، وحيث احترام الأقليات غير مضمون، إضافة إلى عدم اعترافها بمسؤولية ما ارتكبته في الماضي

5- حسب عبارة روجي كيكايرمان Roger Cukierman، مدير المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية بفرنسا CRIF، فإن «معاداة الصهيونية هي الرداء الجديد لمعاداة السامية»، (Le Monde,8 janvier 2003). هكذا فدولة إسرائيل محمية من كل نقد، مهما ارتكبت هي أو الإسرائيليون من أفعال عنيفة.

6- أشار إدغار موران EdgarMorin مؤخرا بجريدة Le Monde الفرنسية، بتاريخ 1 يناير 2003، إلى اللاتسامح الذي يطبع، بكل تأكيد، المسيحية «إزاء كل ديانة أخرى»، عكس ما يميز الإسلام من انفتاح وتسامح...

من إبادة في حق الأرمينيين. والتي من المدهش أن نلاحظ فيها استمرار اشتغال اللاهوت السياسي بطريقة سرية خلف نقاشات تقدم نفسها، باعتبارها علمانية ومؤسساتية.

## نقط ضعف الاتهام

مثلما هو عليه الأمر دائما، فإن السجال يخلط الوقائع بالحجج، بطريقة تجعلها متشابكة وملتبسة. وبالتالي من الصعب توضيح ما ينجم عن هذا الخلط من غموض وإبهام. فما وراء النقاشات التاريخية أو الظرفية، نجد من المثير للانتباه أن المُدين للعنف التوحيدي، يتهم بصفة أساسية الديانات التوحيدية الأخرى التي هو، مبدئيا، لا يتبعها ولا يعتنقها. هذا بالتأكيد هو الفخ الذي يسقط فيه المدين، الذي يضع نفسه في موقع المتَّهَم وبالتالي موقع البريء. والحال أنه يرتكب ظلما حقيقيا إزاء أتباع الديانات التوحيدية المتنوعة، الذين يتم الخلط بينهم في إطار نفس الشجب والإدانة. إن الخبير أو الصحافي المستعجل يربط العنف بأولئك الذين يُكون عنهم، جراء ذلك، صورة كاريكاتورية، منتجا، علاوة على ذلك، كراهية وأحقادا ضدهم وردود فعل سلبية، لا تتم دون أن تلوث بدورها النقاش. والحالة هذه، فمن المعقول أن يطالب المرء باحترام الديانات التوحيدية، بما في ذلك تلك التي يُعتقد اليوم أن من اللائق اتخاذ مسافة إزاءها، بل إدانتها. لكن المنتقد، في الحقيقة، يعتقد أنه «بمنأى» عن هذه الأخطاء والانزلاقات، ولاشك أنه يندهش عندما يجد نفسه متهما بالزيغ والضلال، في الوقت الذي يظن نفسه على صواب.

لكن هل من الممكن أن يكون على صواب؟ إن «الإنسان الأخير»، بتعبير نيتشه، مقتنع بتفوقه وتعاليه على الجهل والتعصب - مستعملين هنا لغة فلاسفة الأنوار التي لا تتم هي أيضا بدون عنف مستتر خلف مظاهر العقلانية - إلى درجة يعتقد معها أن بإمكانه «سحق الدنيء» بدون خسارة، من جهة، لأن «الدنيء»، في نظره، ليس إلا كائنا مجردا وليس شخصا حيا يعاشره ويجرحه، ومن جهة أخرى، لأنه جد متيقن من حقيقته، حيث تبدو له أحكامه صحيحة بالضرورة. وأنه لا يستهدف بذلك مؤمنين ملموسين، مادام أنه يستعيض عنهم بكيان مجرد، هو «عقيدة التوحيد»، التي يعتقد أن بإمكانه أن يركز هجومه عليها، بل أن يماهيها مع سمات كاريكاتورية. وتبعا لذلك، يمارس امبريالية الحقيقة هذه التي كثيرا ما يؤاخذ الآخرين عليها. والحقيقة أن «الإنسان الأخير» سئم من كل شيء، حيث إنه بكل جوارحه لا يعتنق شيئا؛ (على الأقل هذا ما يعتقده). وإذ يجهل طبيعة الإيمان الديني، فهو لا يمسك منه إلا بمظاهر سطحية، وبإحالات واقتباسات تاريخية مفصولة عن سياقها، وبسلوكيات مختزلة في مظهر مضحك وتافه؛ أو إنه، أيضا، يقصي ويستبعد كل ما يجده أتباع الديانة التوحيدية في الإيمان الصادق من قوة باعثة على الأمل والرجاء، ومن حب للغير وثقة به أو من حب وتقدير للحياة. فهو إذن قادر، ببراءة تامة، على الخلط بين كل الديانات في إطار نفس الشجب، كاشفا بذلك عن جهل وعن أحكام مسبقة تصنفها ضمن هذه الجهالة التي يمارسها هو.

إن «الإنسان الأخير» ليس فقط أنه لا يستجيب للشروط الموضوعية التي يتطلبها حكم صحيح حول الأديان، بل يمكن أن نشك بأنه يعاني من شعور بالذنب إزاء نفسه وإزاء التقليد الذي ينتمي إليه، الشيء الذي لا يتيح أبدا، مرة أخرى، إصدار حكم هادئ ونزيه. هكذا نقرأ في المقال المشار إليه أعلاه، أن ابن لادن، في الواقع، «لا يمكنه الحديث باسم التقليد الإسلامي»، لأن «من الواضح أن ما يقوم به ابن لادن هو استمرار وامتداد للحركة المناهضة للإمبريالية والعالمثالثية **الغربية** (التشديد من عندي) التي ظهرت في الستينيات والسبعينيات». لذلك «فإن ابن لادن هو رجل غربي وينتمي إلى عالمنا» بمعنى: ينتمي إلى عالمنا الغربي. وبالتالي، فإن الغرب هو المسؤول عن أفعال العنف الإرهابية، وليس الواقع الإسلامي والشرق الأوسطي المعقد، كما يمكن أن يعتقد ذلك البعض.

يوجد من جديد، في مكان آخر، تجريم مماثل للذات. كتب جون بودريار في مقال خصصه لـِ «عنف العولمة»[7]: «مهما كان من أمر لامعقولية وعبثية الإرهاب، فهو الحكم والشجب الذي يصدره هذا المجتمع [الحديث] حول ذاته». وفي العمق، فإن الإرهاب، الذي حرص بودريار على إبراز ما يمثله من رعب وفظاعة، ليس إذن إلا الحكم الذي يصدره الغرب - أمريكا بصفة خاصة - ضد ذاته؛ إن المجتمع الحديث هو الذي يجلد نفسه بنفسه، عن حق وعدل. لا يتعلق الأمر بمجرمين يقومون بأفعال بربرية، بل إن الغرب هو الذي ينال الحكم العادل الذي أصدره في حق ذاته...إنه يحصد ما زرعه؛ فاللاتسامح والعنف هما ديدنه، وبالتالي ينال عنهما الجزاء العادل.

كيف يمكن لاستبطان مثل هذا التجريم للذات أن يعطي شيئا آخر غير تحليلات لامعقولة وحمقاء، مثل هذه التي قدمها بودريار؟ وكيف يمكن لبن لادن إذا ما قرأ مثل هذه الأحكام، ألا يكون مؤيَّدا في اشمئزازه من حضارة، بعض نخبها سعداء بما تتلقاه من جلد، مشرعن باستمتاع مَرضي.

## سطوة العنف

لاشك في كون الاتهامات الموجهة للديانات التوحيدية لا تخلو من قسط من الحقيقة. لا أحد - والديانات التوحيدية هي في ذلك مثل باقي الديانات - يفلت من العنف، وهذه الفكرة هي مفتاح فهم كل ما يتعلق بهذا الموضوع. كل واحد يعرف إلى أي حد أن التاريخ مصنوع بالقساوات والأفعال العنيفة، والتي للديانات نصيب فيها. لكن فيما يتعلق بالمُدينين للديانات، فليسوا معفيين من هذا العنف الممارس بواسطة أحكامهم الممتعضة، الجائرة، والمزدرية، التي تماهي بين المؤمنين والجهل وبين الديانات والبربرية. فهناك دوما خطر في إرادة حصر العنف في مكان محدد، في مؤسسة معينة، في هيئة محددة أو في جماعة ما. وسواء كان هذا الحصر

7- Le Monde diplomatique, novembre2008, p.18

للعنف في الدائرة الدينية، تبعا لتوجه مهيمن بقوة في أيامنا هذه، أو انصب على البنيات الاقتصادية، على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج (كما ذهبت إلى ذلك الماركسية- اللينينية)، فإننا نكون أمام نفس المخاطرة: الاعتقاد بأننا وضعنا مسافة بيننا وبين العنف، وموضعناه، وحيدناه بالتالي، وأننا بتحديدنا لمكان اشتغاله على هذا النحو، سيكون من الممكن التخلص منه. فلنقض على الملكية الخاصة، يقول لينين في كتاب **الدولة والثورة**، عندئذ سيتعود الناس على العيش في طمأنينة، في إطار التكيف مع القواعد الاجتماعية. إذا اختفت الديانات، بفعل الحظ أو الصدفة، كما تعتقد ذلك، طواعية، بعض الأوساط، فإن الإنسانية ستتخلص أخيرا من التعصب. المشكل هو أنه لإلغاء الملكية الخاصة أو الدين، يلزم ممارسة شيء من ديكتاتورية البروليتارية بالنسبة لحالة الملكية الخاصة، وشيء من الإكراه الدولتي أو إعادة التربية بالنسبة إلى حالة إلغاء الدين. إذن، يجب ممارسة حد أدنى من العنف. لكننا نعرف مقاومة الواقع للانصياع لتعليمات الإيديولوجيات المحافظة، المحبة والمتطلعة لعالم تسود فيه المصالحة مستقبلا، عندما يتبنى الجميع آراءها.

إن العنف إذن متعدد الأشكال، مقاوم وصامد، وبدون شك غير قابل للإقصاء من العلاقات الإنسانية في جذورها العميقة. يمكنه، إذن، أن يتخذ من الديانات أداة لاشتغاله، بل يمكن أيضا أن يستعمل كأدوات له الاقتصاد والدولة والعلاقات بين الجنسين أو النقاش بين الأفكار. وإذا كانت الديانات قد استُعملت، في غالب الأحيان، كأقنعة للتعصب وبررت فرض الحقيقة أو قوانينها الخاصة، وإذا كان يحصل في أيامنا هذه أيضا، أنها تترك نفسها أحيانا تنقاد لتُستعمل كأداة، فإنها، للأسف، ليست مكانا «مفضلا» للعنف[8]. هل يمكن نسيان أفعال العنف المرتكبة خلال القرن العشرين على يد مذاهب ملحدة، ظافرة سياسيا، والتي قضت بدون شفقة على «الكائنات البشرية الزائدة»، حسب العبارة المرعبة التي قالتها حنا أرندت بصدد الأنظمة الشمولية؟ هنا أيضا، سيكون من المفيد ألا نتعجل في تبرئة ذمة الإلحاد الرسمي ونمط العقلانية التي تلهمه (الديالكتيك الماركسي الشهير الذي يدعي العلمية) من كل مسؤولية، لكي نحمل الديانات التوحيدية وحدها مسؤولية شرور التاريخ.

غير أن نيتشه الملحد كان قد رأى على وجه أكمل، أنه رغم موت الإله واندثار عقيدة التوحيد، فإن إرادة الاعتقاد أو الحقيقة، لن تختفي مع ذلك. بل عكس ذلك، فإن وهم الاعتقاد بالأوثان، كما يرى، سيكون أقوى، حيث إن «الإنسان الأخير» سيعتقد نفسه متحررا من كل اعتقاد (وهذا، أيضا، حال المفكر الحر -libre penseur الشهير الذي صب عليه نيتشه جام نقده القاسي، لسذاجته الكبيرة حول هذه المسألة!)؛ لكن هذا «الإنسان الأخير» سيوظف إرادته في الاعتقاد، وبالتالي عنفه الخاص أو ضعفه، في مكان آخر: في حزب سياسي، في العلم، بل في الإلحاد...إن ظلال إرادة الحقيقة، رغم كل شيء، لم تنته من تمديد وتوسيع هيمنتها، لتشمل أيضا المناطق التي اختفت فيها الشمس. إنه لدرس حكيم هذا الذي يلقننا إياه نيتشه، والذي يفرض

8- انظر بهذا الصدد: Paul Valadier, «Religions et violence», Etudes, avril 1989, p.521-528

على كل واحد «أن يفحص أوثانه الخاصة»[9]، وألا يلقي بالتعصب على عاتق الغير أو يموقعه ويحصره في هيئات معينة (مثل الديانات الحالية)، يعتقد أنه متخلص ومتحرر منها.

تقتضي النزاهة الفكرية أيضا، ليس فقط ألا نمجد، بطريقة عتيقة، الشرك باعتباره متسامحا وذي نزعة سلمية (مثلما يقوم بذلك خطاب أكاديمي، هو في الحقيقة بدون قيمة عملية)، بل يلزم، بصفة خاصة، أن يحصل لدينا وعي بالأشكال المتنوعة للديانات التوحيدية. فمن جهة، وعلى عكس الشرك، يضع التوحيد في الأمام إلها يصدر عنه الوحي، وبالإمكان الكلام معه - ولهذا السبب، فإن هذا الإله يربط مع الإنسان علاقة تنتزعه وتحرره من جاذبيات الآلهة الطبيعية أو السياسية؛ فهو إذن حامل لحرية تجهل، بصفة عامة، الإحالة إلى قوى غامضة أو مقدس سحري. ومن جهة أخرى، فإن التقليد الإبراهيمي التوحيدي، بصفة خاصة، قد نما وتطور في أنماط من الأديان التوحيدية، من المستحيل الخلط بينها. هذه الأخيرة، من بين أخرى، ليس لها نفس التصور للشريعة الموحاة، ولا نفس الفكرة حول وظيفتها الاجتماعية والسياسية. فأية علاقة تقيمها هذه الشريعة مع الإله ذاته؟ هل تدعي أن تصبح هي المعيار الاجتماعي الوحيد والمهيمن؟ هل تدعو إلى تمييز مبدئي بين مدينة الله ومدينة البشر، بين الزمني والروحي؟ وهل تترك، بالتالي، مكانا لصرامة واستقلالية القوانين البشرية دون أن تبتلعها في إطار القانون الإلهي؟ وهل تستهدف تكوين جماعة موحدة خاضعة لتعاليمها، مقصية الجماعات الأخرى؟ وأيضا: أي مكان تعطيه للحرية الدينية أو للضمير الشخصي؟ تنبثق، حسب الأجوبة التي تقدم عن هذه الأسئلة، أشكال اجتماعية وسياسية للدين، يجب الحرص على عدم الخلط بينها. لا شك أن كل واحد منها حامل لعنف كامن وممكن، غير أنه لا يمكن أن نماهيها كلها مع نفس الإرادة الإمبريالية التي يكون التوحيد وحده متهما بها (والذي، بطريقة مفارقة، لا يمكن الحديث عنه بصيغة المفرد، لأنه يتمظهر في صيغ متعددة ومختلفة؛ أي في عدة ديانات توحيدية!).

في إطار ظرفية حالية مأساوية، يجد أتباع الديانات التوحيدية أنفسهم مطالبين بالقيام بمهمة أساسية، تتمثل في تطهير عقليتهم ومعتقداتهم، باستبعاد كل ما يحمل فيها على احتقار الآخر وعلى تسويغ الأفعال العنيفة. وهذه، بدون شك، مهمة شاقة، يمكن القول بأنها لم تنجز أبدا. ولكن إذا كان الاعتراف بالخطايا والأخطاء مسألة تهم الماضي، وإذا كان تطهير القلب مسألة أساسية بالنسبة للحاضر، فيلزمهم رفض مماهاة وربط انتماءاتهم الدينية بالعنف، وبالإرهاب خاصة.، لأن ذلك ظلم؛ إذ إن قبولهم السلبي بمثل هذه الأحكام، سيكون تواطئا مع عنف يُترك هكذا للتكاثر والتضاعف دون رد فعل. يتعين على كل مؤمن أن يصرح بوضوح بما يلي: إن تبريرات الأفعال البربرية من طرف الإسلاميين هي، من منظور كل وعي ديني تجديف، وليست كذلك من منظور الإسلام فقط. إنها أفعال ترتبط بالتعصب الذي لا علاقة له بالموقف الديني. وإذا كان يعود إلى المسلمين، بصفة خاصة، أن يهدؤوا من روعهم إزاء هذه الاستعمالات المغرضة للدين، فإن كل وعي

---

9- Nietzsche, Le crépuscule des idoles, Avant-propos.

سليم لا يمكنه إلا أن يتمرد على رؤية العنف مبررا ويحظى بالتشجيع تحت غطاء الدعوة إلى الله - وهي، في هذه الحالة، دعوة إلى وثن. يصدق هذا أيضا على جورج بوش الابن، الذي لا يمكن أن نتسامح مع تغطيته على سلوك حربي باستدعاء الله. لكن من المشروع أيضا، أن ننتظر من «الإنسان الأخير» ألا ينضاف إلى هذا التوجه بمماهاته للديانات والمؤمنين مع العنف، وبالتالي ألا يساهم هو أيضا في هيمنة العنف الذي يدينه. باختصار، إن العنف يهمنا جميعا، وحضوره القاتل يدعونا إلى اليقظة والاحتراس، وليس إلى إلقائه على عاتق الآخر، باعتباره خاصية تنتمي إليه وتميزه مبدئيا.

## حاشية

في حالة الحملة العسكرية التي قامت بها قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق(أو ضد نظامه؟ أو ضد الإرهاب؟ أو ضد أسلحة الدمار الشامل؟)، فإن إجماع الكنائس المسيحية على التحذير من هذه الحملة في البداية، وعلى إدانتها فيما بعد، يشهد، بالنسبة إلى كل ذي نية حسنة، على أن التوحيد المسيحي لم يوافق على هذا العنف ولم يدعمه، ما عدا لدى بعض أهدابه البروتستانتية المعتقدة بعودة المسيح المخلص التي يرتبط بها محيط جورج بوش الابن.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

www.mominoun.com للدراسات والأبحاث


الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com



All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017